أبو عَبْدِ اللَّهِ المقدسيُّ
الرَّحالةُ الفقيهُ
(335 ـ 381هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

أَبو عبد اللهِ المقدسيُّ، الرَّحالَةُ الفقيهُ مِنَ العُلماءِ الذين رَحلوا في البُلدانِ والأَصْقاعِ في سَبيلِ العِلمِ والمَعرفَةِ، جَابَ وطافَ، عَبَر وأَقامَ، وشاهَدَ ووَصفَ ما رآهُ بِدِقَّةٍ وإِتْقانٍ. زارَ أَقاليمَ الأَرضِ المَعروفةِ في عَصرِهِ، ودوَّنَ مَعلوماتِهِ عَنْها في كتابِهِ الشَّهيرِ «أَحْسَنِ التَّقاسيم في مَعرفةِ الأَقاليمِ».

أَبو عَبْدِ اللهِ المقدسيُّ، الرَّحالةُ الفَقيهُ، الجُغرافيُّ الحَصيفُ واللَّبيبُ، الّذي حَرَصَ على أَنْ يكون بَحثُهُ في الجُغرافيا مبنيّاً على المُشاهَدَةِ والاخْتبارِ والتَّنظيمِ والتَّبويبِ والتَّفصيلِ، وبِأَنْ لا يكونَ مَنْهجُهُ في البَحثِ والتَّصنيفِ كَمنهجِ العُلماءِ الّذين سَبقوهُ ودَوَّنوا مُشاهداتِهِم عن الأَرضِ وأَقاليمِها وتضاريسِها اعْتِماداً عَلى ما حَكاهُ لَهُم الآخرونَ، أَو الّذينَ كَتبوا بِاختصارٍ لا يُفيدُ ولا يُغني الدَّارِسَ شَيئاً. وهُوَ وإِنْ كانَ في عَصرٍ لَمْ يَكُنْ فِيه عِلْمُ الجُغرافيا عِنْدَ العَربِ قد تبلوَرَ بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدَّمَ حقائقَ ومعلوماتٍ أَفادَتَ كَثيراً العُلماءَ

الّذينَ أَتوا بَعْدَهُ. ورُبَّما كانَتْ رِحْلَتُهُ الّتي اكتَشَفَ فيها مَجاهِلَ الأَرضِ والأَقاليمِ مرحَلَةً جَديدةً وهامَّةً مِنْ مَراحِلِ تَطوُّرُ عِلمِ الجُغرافيا عِنْدَ العَربِ والمُسلمينَ. . . هَذا التَّطورُ والازدهارُ في البَحثِ الجُغرافيِّ الّذي وَصَلَ إِلى نُضجِهِ على يدِ الشَّريفِ الإِدريسيِّ فيما بَعْدُ.

وعالمُنَا أَبو عَبْدِ اللهِ المقدسي، واجَهَ مِنَ المَشَقَّةِ والتَّعبِ والابتلاءِ في رحلتِهِ هَذِهِ ما لمْ يُلاقهِ رحَالةٌ جُغرافيٌّ آخَرُ وَلكِنَّهُ صَبَرَ وتجلَّدَ على ما يُلاقيهِ، لأَنَّه كانَ يَهدفُ إِلى وَضْعِ وتَصنيفِ شيء جَديد ومُفيد، كما تَحدَّث هُوَ عَنْ ذَلِكَ، بَلْ ليسَ مُفِيداً وحَسب وإِنَّما يُرضي اللهَ كَذلِكَ، فَهو إِذاً أَخَذَ بِمدلولِ الآيةِ القُرآنيةِ الّتي تَحضُّ على النّفيرِ والسَّعي في مفازاتِ الأرضِ مِنْ أَجْلِ العِلمِ والإِفادَةِ. . وهِيَ قوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122].

يقولُ الشَّيخُ مُحمَّدُ الخُضْر حُسين في كِتابِهِ الرِّحلاتِ:

«ويَلحقُ بِالتَّفَقُّهِ بِالدِّينِ كُلُّ عِلمٍ يُعدُّ في وسائِلِ الرُّسوخِ في علومِ الدِّينِ كالنَّحو والبَلاغَةِ، بَلْ يلحقُ بِالتَّفَقُّهِ في الدِّينِ كُلُّ عِلمٍ يتوقَّفُ عليهِ استقلال الأُمَّةِ وسلامَتُها مِنْ أَيدي أَعدائِها».

ومِنْ هَذا المُنَطلقِ، خَرجَ المقدسيُّ يجوبُ في أَقاليمِ العالَمِ الإِسلاميِّ، بَحثاً عَنْ عِلمٍ جَديدٍ، وعَنْ معارفَ جُغرافيَّةٍ يُفيدُ بِها النَّاسَ كُلَّ النَّاسِ. فَعادَ مِنْ هَذهِ الرِّحلَةِ مُحَقِّقاً

أغراضاً ساميةً تَدورُ في فَلَكِ العِلمِ والإصلاحِ في الأَرضِ، ووَضَعَ كتابَهُ الجُغرافيَّ - «أَحْسَنَ التَّقاسيمِ» مُدَوِّناً فيهِ أَخبارَ رحلتِهِ، وذَكَرَ المُدنَ والبُلدان الّتي نَزَلَها، والجبالَ والمغاراتِ التي عبرها، والبِحارَ والأنهارَ الّتي شاهَدَها، ووَصَفَ السُّكانَ في الأقاليمِ وعاداتِهِم وما أَعْجَبَهُ منهم، كَما ذَكَر اَلصُّعوباتِ الّتي واجَهَها.

فَمَنْ هُوَ أَبو عَبْدِ اللهِ المقدسيُّ؟

❋ ❋ ❋

هُوَ أبو عبد اللهِ مُحمّدٌ بْنُ أَحمَدَ بْنِ أَبي بَكرٍ البنَّاءُ، وأَصْلُهُ عَربيٌّ مِنْ مَدينَةِ القُدسِ بِفلسطينَ، ولأَنَّهُ ولِدَ في القُدس سُمِّي بِالمَقدِسيِّ.

كانَ جَدُّهُ بَنَّاءً مَشْهوراً عَلى مُستوى العَالَمِ الإسلاميِّ والعرَبيِّ، وهُوَ الّذي بَنى ميناءَ عَكَّا وحائِطَها واسمُهُ مَكتوبٌ عليهِ.

ولِدَ أَبو عَبدِ اللهِ المَقْدِسيُّ في القُدسِ سَنةَ (325) هجريَّةً ونَشَأَ وترعرعَ فيها، وسَمِعَ مِنْ عُلمائِها الّذينَ كانوا يعقدونَ مجالِسَهُم العِلميَّةَ في مكَتباتها ومسَاجِدِها، كما كانَ المسجدُ الأَقْصى في القُدسِ مُلتَقى العُلماءِ الّذين يأتون مِنْ كافَّةِ أنحاءِ العالم الإسلاميِّ حينَها ويتطارحونَ علمَهُمْ ومعارِفَهُمْ في فنائِهِ على طلبةِ العِلمِ. ولَمْ يُفَوِّتْ أَبو عَبْدِ اللهِ المقدسيُّ على نَفْسِهِ مَنافِعَ وفوائِدَ هَذهِ المجالِسِ العلميَّةِ في المسجدِ الأَقْصَى، وخَاصَّةً أَنَّهُ كانَ ميالاً للعلمِ مُنذُ صِغَرِهِ.

عاشَ المقدسيُّ في القَرنِ الرَّابعِ الهِجريِّ، حَيْثُ كانتْ مَعارِفُ وَعُلومُ الحضارَةِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ تَغْزو الدُّنيا وتُداني الشَّمسَ وتُحاكي السَّماءَ.

وَما إنْ أَتمَّ المقدسيُّ الخامِسَةَ عشرةَ مِنْ عُمرهِ حَتَّى انْتَقَلَ للإقامَةِ في دِمشقَ مع أَسْرتِهِ. وفي دمشقَ التَقَى بكثيرٍ مِن العُلماءِ الّذينَ أَخذَ عَنهُم الحديثَ والفقهَ والتَّفسيرَ وعِلمَ القراءاتِ، فصارَ عالماً بِالقراءاتِ السَّبعِ ويقرأُ بِقراءَة ابْنِ عامرٍ، قراءَةِ أَهْلِ الشَّامِ.

وبَعْد عشرين سَنةٍ مِنْ إقامَتِهِ في دِمشقَ غادرها إلى العراقِ بَادئاً رِحلَتهُ المشرقيَّةَ، فَمَكثَ في بَغدادَ فترةً مِنَ الزَّمَنِ ينْهَلُ مِنْ علومِ فُقهائِها ومُحدثيها، كما ذاعَ صيتُهُ في العراقِ كعالِمٍ عارفٍ بِالقراءاتِ، وكقارئٍ بَارعٍ، كما مَكَّنَتْهُ إقامَتُهُ في العراقِ مِنْ مُخالَطَةِ أَهْلِ الطُّرقِ مِنَ المتصوفينَ والزُّهادِ، فسَلَكَ طَريقَهُمْ في خُشونَةِ العيشِ، والزُّهدِ بِالدُّنيا، وتَنقَّل في مُدنِ العِراقِ، وسَمِعَ مِنْ عُلماءِ كُلِّ مَدينةٍ أو بَلدةٍ نَزَلَها، كما طافَ بِمُدنِ فارس وبِلادِ السِّندِ فَزارَ شيرازَ وأَصبهانَ وبُخارى ونيسابور وجَرجانَ وسيرافَ. وقد ذكرَ في مقدمةِ كتابِهِ الشُّيوخَ والعُلماءَ الّذينَ سمِعَ مِنْهُمْ وروَى عَنْهُمْ، مِنْهُمْ:

أبو مُحمَّدٍ السِّيرافيُّ، والحاكِمُ أَبو نَصرٍ منصورُ بنُ مُحمَّدٍ الحَربيُّ مُحْتَسبُ بُخارى، وأَبو الفَضلِ بْنُ نَعامَةَ بِشيراز، والفقيهُ أبو عَبْدِ اللهِ في دِمشقَ، وأَبو عبد اللهِ مُحمَّد بْن أَحمد بِعصَبةِ أَرجانَ وأبو بكرٍ الإسماعيلي بِجَرجانَ، والفقيه أَبو عَبْدِ اللهِ مُحمَّد بْن عُمَر البُخاريُّ، والشَّيخُ العَدلُ أَحْمَدُ بْنُ مُحمَّد بنيسابور، ومُحمَّد بْن مَنصورٍ، وغسان الحكيم بأريحا، ومُسافِرٌ بْنُ عَبْدِ اللهِ الأَنْصاريُّ وأَبي الطَّيِّبِ بْن غليون بِمصرَ.

❁ ❁ ❁

حَدَّدَ المَقدسيُّ في مُقَدِّمَةِ كتابِهِ الهَدَفَ والغايَة الّتي كانَ يَبْتَغيها مِنْ وراءِ رِحْلَتِهِ هَذهِ، وهي تَحقيقُ المَصلَحةِ والمَنْفَعَةِ العَامَّةِ لِلبَشريَّةِ الّتي يَجني مِنْ خلالِها مَرضاةَ رَبِّهِ ﷻ، وهَذا أَعلَى وأَعظَمُ مَقصدٍ مِنْ مَقاصِدِ الدِّينِ والشَّريعَة، كَما يُمَثِّلُ تعاليمَ ومَبادِئ الدِّينِ الحنيفِ التي تقومُ عَلى بُنيانِ العَملِ والسَّعي لتَحقيقِ السَّعادَةِ والخَيرِ في الحياةِ.

خَرجَ المَقدسيُّ ضَارباً وساعياً في أَرضِ اللهِ الواسِعَةِ على امتدادِ رُقعَةِ دولةِ العَربِ والإِسلامِ، ليُحَقِّقَ في حياتِهِ شَيئاً نَافعاً كما ذَكَرَ وقالَ:

«يحيي بِهِ ذِكْرَهُ، ويَنْفَعُ الخَلقَ، ويُرضي الرَّبَّ»، ولهذا وَجَدَ أَن هَدَفَهُ هَذا لا يُتمُّ ولا يَتَحقَّقُ إِلَّا بِإِتْمامِ ما بَدأَهُ مِنْ تَرحالٍ وسَفَرٍ في البِلادِ والأَصقاعِ، وخَتمِهِ بِتَصنيفِ كتابٍ يُحيي بِهِ ذِكرَهُ، ويَنفَعُ الخَلْق ويُرضي الرَّبَّ. فجاءَ كتابُهُ «أَحْسَن التَّقاسيمِ» تَحقيقاً لغايَتِهِ ومَسْعاه مِنْ رحلَتِهِ الطَّويلَةِ.

لَقَدْ شَاءَ المقدسيُّ أَنْ يكونَ كتابَهُ المَذكور، فَريداً في معلوماتِهِ، وغَنيّاً بِمادَّتِهِ العِلميَّةِ، وجَديداً في تبويبِهِ وتَرتيبِهِ، ومُتميِّزاً بِموضوعاتِهِ، ولِهذا لَمْ يَعْتَمِد المقدسيُّ عَلَى المعلوماتِ الّتي أَدْلَى بها سابقوهُ مِنَ العُلماءِ في كُتُبِهِم ومُصَنَّفاتِهِمْ، كَما لَمْ يَعتَمِدْ عَلَى ما يَرويهِ لَهُ النَّاسُ أو ما يحكيهِ لَهُ الآخرونَ، وإِنَّما اعتَمَدَ على مُشَاهداتِهِ وخُبراتِهِ الشَّخصيَّةِ في كُلِّ معلومَةٍ دوَّنَها وكَتَبَها عَنْ طَبيعَةِ البُلدانِ التي زارَها، والشُّعوبِ الَّتي رآها واحتكَّ بِها، لأَنَّهُ كانَ يَرى أَن عالم الجُغرافيا هُوَ الّذي يكتبُ ما يراهُ ويُشاهِدُهُ، ولَيْس هُوَ الّذي يكتبُ ما يرويهِ لَهُ الآخرونَ، والفَرقُ بين الجُغرافيِّ والرَّحالَةِ أَنَّ الأَوَّلَ يصِفُ ويُملي على

الآخرينَ ما شَاهَدَهُ بِنفسِهِ، وما رَآه بِتَجريته، أَمَّا الرَّحالةُ فَغَالباً ما يصِفُ ويكتُبُ ما أملاهُ الآخرونَ عليهِ، ولِهذا كَانَ المَقدسيُّ جُغرافيّاً وليسَ رحالَةً في كتابِهِ الّذي وَضَعَهُ.

❋ ❋ ❋

لَقَدْ كانَتْ رِحلَةُ المقدسيِّ شَاقَّةً وطويلةً، واسْتَغرَقَتْ زَمناً طويلاً أَيضاً، لِأَنَّ غالبَها كانَ في البَرِّ، كابَدَ خِلالَها حَرَّ الصَّيفِ، وبَردَ الشِّتاءِ، كَما جَاهَدَ نَفسَهُ عَلَى قطْعِ الصَّحارى، وتجاوزِ الوديانِ والجِبالِ، ورحلَتُهُ تُشْبِه إِلى حَدٍّ كبيرٍ رِحلَةَ ياقوت الحمويِّ، إِلَّا أَنَّ المَقدسيَّ رَحلَ إِلى المَغربِ زيادةً على رِحلَةِ ياقوت الحمويِّ، فَطافَ وجالَ في جميعِ أَنحاءِ المَمالِكِ الإِسلاميَّةِ مِنْ أَقْصَى المَغربِ إِلى أَقْصَى المَشرقِ، ومِنْ أَقصى المَشرقِ إِلى أَقْصَى المَغربِ، كَما دَخَلَ القِسْطنطينيَّةَ ورحَلَ عَنْها إِلى جنوبي الجَزيرةِ العَربيَّةِ كَما قالَ:

«ولَمْ يبقَ إِقليمٌ إِلَّا دَخلناهُ عَدَا الأَنْدَلُس» وقَدْ حَرصَ المَقدسيُّ أَن يُسجِّلَ مُشاهداتِهِ ومُلاحَظاتِهِ في كُلِّ مَكانٍ يحلُّ فيهِ، وفي كُلِّ مفازةٍ يقطعُها، وفي كُلِّ جَبَلٍ أَو واد يَمرُّ فيهِ، أَو في كُلِّ نهرٍ أَو بَحرٍ يَعبُرهُ، كما دوَّنَ اجتماعاتِهِ ولقاءَاتِهِ بِالنَّاسِ عَلَى اختلافِ طبقاتِهِمْ ومَذاهِبِهِمْ ومَشارِبِهِمْ، وسَجَّلَ ما لقيَهُ مِنْ مُعاناةٍ ومَشَقَّةٍ وتَعَبٍ وصعوباتٍ، فَهو يقولُ في كِتابِهِ:

«ولَمْ يَبْقَ شيءٌ مِمَّا يلحقُ المُسافرينَ إِلَّا وقَدْ أَخَذْتُ مِنْهُ نصيباً إلا ارتكاب الكَبيرةِ».

كَما لَمْ يَتوانَ المقدسيُّ أَثناءَ رِحلَتِهِ أَنْ يقومَ بِبَعضِ الأَعمالِ الّتي أُسْنِدَتْ إِليهِ مِنْ بَعضِ الملوكِ، فتولَّى الحِسْبَةَ في بَعضِ البُلدانِ، كَما اجْتَمَعَ بِبَعضِ الملوكِ ودَخَلَ قصورهُمْ،

واطَّلَعَ على خَزائِنِ كُتُبِهِمْ، وعَمِلَ في تجليدِ الكُتبِ في إِحدى البُلدانِ أَيضاً، وقَدْ ذَكَرَ كُلَّ ذَلِكَ في كتابِهِ فقال:

«وفَقَّهْتُ، وأَدَّبتُ، وخَطَبْتُ عَلى المنابِرِ، وأَذَّنْتُ عَلى المنائِرِ، وأَقَمْتُ في المساجِدِ، وذَكرتُ في الجَوامِعِ، واختلفت إِلى المدارس، ودعوتُ في المحافِلِ، وتَكلَّمتُ في المجالِسِ، وأَكلتُ مَع الصُّوفيَّةِ الهرائِسَ، ومَعَ أَصحابِ الخانقاه مِنَ الثَّرائِدِ، ومَعَ النّواتي العصائِدَ، وطُرِدْتُ في الليلِ مِنَ المساجدِ، وسُحتُ في البَراري، وتُهتُ في الصَّحارى، وصَدَقتُ في الوَرعِ زَماناً، وأَكلتُ اللَّحمَ عياناً، وصَحبتُ عُبَّادَ جَبَلِ لُبنانَ، وخالطتُ حيناً السُّلطانَ، ونَزلتُ في عَرصَةِ الملوكِ بينَ الأَجلَّةِ، وسَكَنْتُ بينَ الجُهَّالِ في محلَّةِ الحاكَةِ، وكَمْ نلتُ العِزَّ والرِّفعةَ، ودُبِّر قتلي غيرَ مَرَّةٍ، وحَججتُ وجَاوَرتُ، وغَزَوتُ ورَابَطْتُ».

❋ ❋ ❋

بَعْدَ كُلِّ هَذا العناءِ الّذي عاناهُ المقدسيُّ مِنْ رحلَتِهِ الطَّويلَةِ، استطاعَ أَنْ يَضَعَ كتابَهُ المُسمَّى بِـ: «أَحسَنِ التَّقاسيمِ في معرفَةِ الأَقاليمِ»، الّذي كانَ مرآةً واضحةً للعالَمِ الإِسلاميِّ مِنْ مَشرقِهِ إِلى مغربه، ومن شمالِهِ إِلى جنوبِهِ في القَرنِ الرابعِ الهجريِّ.

وكمثالٍ عَنْ ذَلِكَ لِنَسمعهُ يتحدَّثُ عَنْ مُشاهداتِهِ:

«ورأيتُ أَنْ أَقصِدَ علماً قد أَغفلوهُ، وأنفردُ بِفَنٍّ لَمْ يَذكروهُ إِلَّا عَلَى الإِخلالِ، وهو ذكرُ الأَقاليمِ الإِسلاميَّةِ وما فيها مِنَ المفاوِزِ والبحارِ والبُحيراتِ والأَنْهارِ، ووَصْف أَمصارِها المشهورَةِ، ومُدنِها المَذكورةِ، ومنازِلِها المسلوكةِ، وطُرقِها المُستعمَلةِ، وعناقير الآلاتِ

والعقاقيرِ، ومعادن الحملِ والتِّجاراتِ، واختلاف أَهْلِ البَلدِ في كلامِهِمْ وأَصواتِهِمْ، وأَلسنَتِهِمْ وأَلوانِهِمْ، ومذاهبِهِمْ ومكاييلِهِمْ وأَوزانِهِمْ، ونقودِهِمْ وصروفِهِمْ، وصِفَة طعامِهِمْ وشرابهِمْ وثمارِهِمْ ومياهِهِمْ، ومعرفَة مفاخِرِهِمْ وعيوبِهِمْ، وما يُحملُ مِنْ عِندهم وإِليهِمْ، وذكر السِّباخِ والصِّلابِ والرِّمالِ والسُّهولِ والجبالِ، والممالِكِ والحدودِ والمصادرِ والجروم، والمحاليفِ والزُّمومِ، والطَّساسيجِ والنُّجُومِ، والصَّنائِعِ والعلومِ، والمباخسِ والمشاجِرِ والمناسكِ والمشاعرِ...».

ولَقَد اعتَمدَ المقدسيُّ في تأَليفِ كتابِهِ على عِدَّةِ أُسسٍ، نَذكُرُ مِنْها:

أَوَّلاً: سُؤالُ ذوي العقولِ مِنَ النَّاس: فَكانَ يَسأَلُ ذوي الخبرةِ مِنْ أَهْلِ المكانِ أو البلَدِ عَمَّا اسْتَشكَلَ عليهِ مَعرفَتُهُ أو ضَاق عليهِ فهمُهُ، وكانَ يشيرُ إِلى ذَلِك في كتابِهِ بقولِهِ «زَعموا... أو قالوا لي..، أَو حَدَّثوني».

ثانياً: ذِكرُ ما رآهُ وما حكاهُ وما سَمِعَهُ: فَكانَ يَذكُرُ مُشاهداتِهِ وما صَحَّ لَهُ بِالمعايَنَةِ مِنَ الأَخبارِ.

ثالثاً: إِضافَة ما وجَدهُ في خَزائنِ الملوكِ مِنْ معلوماتٍ في الكُتب والمصُنَّفاتِ.

رابعاً: كانَ لا ينقلُ شيئاً عَنْ غيرِهِ إِلَّا عِنْدَ الضَّرورَةِ القُصوى والحاجَةِ المُلحَّةِ.

توفي المقدسي سنة (381) هجريَّةً، ولم يذكر المُؤَرخونَ مكانَ وفاتِهِ ودفنِهِ.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ عَلى ماذا حَرصَ المقدسيُّ؟

2 ـ منْ أَيِّ مُنطلَقٍ خَرجَ المقدسيُّ في رحلتِهِ؟

3 ـ ماذا دَوَّنَ المقدسيُّ في كتابِهِ «أحسنِ التَّقاسيم»؟

4 ـ ماذا كانَ يعملُ جَدُّ المقدسيِّ، وماذا أَشادَ؟

5 ـ ماذا مكَّنَت المقدسيَّ إِقامتُه في العراقِ؟

6 ـ ماذا كانَ هَدفُ المقدسيِّ مِنْ رحلتِهِ وغايتُهُ؟

7 ـ ما هي الأَقاليمُ الّتي زارَها المقدسيُّ؟

8 ـ ما هي الأَعمالُ الّتي أُسْنِدَتْ إلى المقدسيِّ أثناءَ رحلتِهِ؟